مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

العدد ٢٠٠٦/٥٠

الأحد ١٠ كانون الأول

تذكار القديسين مينا الرخيم الصوت وأرموجانس وأفغرافس

اللحن الأول

إنجيل السَحَرْ الرابع

الرسالة

(أفسس ٥:٨–١٩)

يا إخوة اسلكوا كأولادِ للنور* (فإنَّ ثمرَ الروح هو في كلِّ صلاحٍ وبرٍّ وحقٍّ)* مختبرين ما هو مَرضيٌّ لدى الربّ* ولا تشتركوا في أعمالِ الظلمةِ غيرِ المثمرةِ بل بالأحرى وبِّخوا عليها* فإنَّ الأفعالَ التي يفعلونها سِرًّا يقبُح ذكرُها أيضاً* لكنَّ كلَّ ما يُوبَّخُ عليهِ يُعلَنُ بالنور* فإنَّ كلَّ ما يُعلَنُ هو نورٌ* ولذلكَ يقولُ استيقظْ أيُّها النائمُ وقُمْ من بينِ الأمواتِ فيُضيءَ لكَ المسيحُ* فانظُروا إذاً أن تسلكوا بحذرٍ لا كجهلاءَ بل كحكماءَ* مفتدينَ الوقتَ فإنَّ الأيامَ شريرةٌ* فلذلك لا تكونوا أغبياءَ بل افهموا ما مشيئةُ الربِ* ولا تسكروا بالخمرِ التي فيها الدعارَةُ بل امتلِئُوا بالروحِ* مكلِّمين بعضُكُم بعضاً بمزاميرَ وتسابيحَ وأغانيَّ روحيَّةٍ مرنّمين ومرتِّلينَ في قلوبكم للرب.

تجسد الكلمة بوصفه إلهاً

عيد الميلاد يقترب والكنيسة تذكّرنا، في صلواتها وخدمها الليتوجيّة، بأنّ الميلاد إنّما هو عيد تجسّد ابن الله وصيرورته إنساناً. غالباً ما نسمع، في هذه الصلوات والخِدَمْ، أنّ التجسّد «سرّ»: «السرّ الخفيّ منذ الدهور، وغير المعلوم عند الملائكة، بكِ ظهر يا والدة الإله للذين على الأرض، إذ تجسّد الإله باتّحاد لا تشوّش فيه». ولكن، ما معنى أن نتحدّث عن التجسّد بوصفه سرًّا؟ وكيف نفسّر استخدام كلمة «سرّ» في الكلام على تأنسن ابن الله؟

بعض الصعوبة يكمن، طبعاً، في أنّ المعنى المألوف لكلمة «سرّ»، في استخدامنا اليوميّ للغة، بعيد كلّ البعد عن المفهوم اللاهوتيّ للكلمة ذاتها. فالسرّ في عرف البشر، هو خبر أو معلومة أو فكرة، اتّفق عدد من البشر على إبقائها طيّ الكتمان، لأنّ افتضاحها قد يجلب عليهم عواقب سيّئة، هم في غنى عنها. ما يميّز السرّ، إذاً، في المفهوم الشعبيّ العام، هو طبيعته المحجوبة. فالسرّ، حين يشيع وينتشر، لا يعود سرًّا، بل مجرّد معلومة يمكن أيّ إنسان أن يطّلع عليها. للوهلة الأولى، يبدو أنّ هذا المفهوم هو إيّاه ما يعبّر عنه النصّ الليتورجيّ الذي أوردناه أعلاه. فهذا النصّ يتحدّث عن التجسّد في صفته أمراً كان محجوباً، حتى عن أذهان الملائكة، بيد أنّه ظهر عبر تجسّد ابن الله، الذي تمّ بواسطة حلوله في بطن العذراء مريم. ولكن هذا التقاطع بين النصّ الليتورجيّ ومفهوم السرّ، كما نقارنه في لغتنا اليوميّة، ليس إلاّ وجهاً واحداً من وجوه السرّ، في محمولة اللاهوتيّ، وهو لا يستنفد كامل معناه.

إنّ لفظة سرّ، في اللغة اليونانيّة، ذات أصل دينيّ لا لبس فيه. وهي تشتقّ، في الأصل، من فعل يشير إلى إغلاق الإنسان لفمه أو لعينيه نتيجة تأثره أمام حدث روحي ديني يفوق إدراكه العقليّ. السرّ، إذاً، يدلّ، بالدرجة الأولى، على ما هو غير مدرك بالطاقة العقليّة، على شعور بالإله، أو بما هو مقدّس، يقف المرء، أمامه، مذهولاً، إذ رغم شعوره بأنّ هذا الحضور الإلهيّ يُفعم كيانه، إلاّ أنّه غير قادر على الإحاطة به، بواسطة العقل، أو التعبير عنه، عبر اللجوء إلى اللغة. ينتج من هذا أنّ السرّ، قبل أن يكون أمراً

الإنـجيل

(لوقا ١٣: ١٠–١٧)

في ذلك الزمان كان يسوعُ يـعـلّـمُ فـي أحـدِ المجامعِ يومَ السبتِ* وإذا بـامـرأةٍ بـهـا روحُ مـرضٍ مـنـذ ثـمـانـي عَـشْرَةَ سنةً وكانت منحنيةً لا تستطيعُ أن تـنـتـصِبَ الـبـتَّـةَ* فـلـمَّـا رآهـا يسوعُ دعـاهـا وقـال لـهـا إنَّـكِ مُـطْـلَـقَـةٌ مـن مـرضِـكِ* ووضـع يـدَيْـهِ عـلـيـهـا وفـي الـحـال اسـتـقـامَتْ ومجَّدتِ الله* فـأجـابَ رئـيسُ الـمـجـمـعِ وهو مُغتاظٌ لإبراءِ يسوعَ في السبتِ وقـال لـلـجمعِ هي ستَّةُ أيَّامٍ ينبغي العملُ فـيـهـا. فـفـيـهـا تـأتـون وتَـسْـتَـشْـفـون لا فـي يـوم الـسـبـت* فـأجـابَ الـربُّ وقال يا مُرائي أليس كلُّ واحدٍ منكم يحُلُّ ثورَهُ أو حـمـارَهُ فـي السبتِ مِـنَ الـمـذوَدِ ويـنـطـلِـقُ بـهِ فيسقيه* وهذه وهي ابنةُ إبـرهـيـمَ الـتـي رَبَـطَـهـا الشيطانُ منذ ثماني عَشْرَةَ سنـةً أمَـا كـان يـنـبـغي أنْ تُطلقَ مِنْ هذا الرباطِ يومَ السبتِ* ولـمَّـا قـال هـذا خَزِيَ كلُّ مَن كان يُقاومهُ وفـرحَ الـجـمـعُ بـجـمـيـع الأمور المجيدةِ التي كانت

مـحـجـوبـاً، هـو أمر غـير مدرَك، غير قابل للتحليل العقليّ الصرف. ولعلّ هـذه الصفة الأولى من صفـاتـه، أي عدم قابليّته للإدراك، هي التي تؤدّي إلى صفته الثانية، أي محجوبيّته، لأنّ الـلـه يـحـجب هـذه الـخـبـرة عـن الـخلائق، حتى يحين أوان كشفها، وذلك تـبـعـاً لتدبيره الإلهيّ الذي لا يسبر أحد غوره. بهذا المعنى، يكتب القديس مكسيموس المعترف (نحو ٥٨٠–٦٦٢) عن سرّ التجسّد الإلهيّ: «إنّ السرّ العظيم، سرّ التجسّد الإلهيّ، يبقى سرًّا إلى الأبد، لا لكونه يظهر لـلـذين يـخلصون بـه، وفق طاقتهم فحسب، بحيث يبقى ما لا يُرى فيه أعظم ممّا يظهر منه، بل أيضاً لأنّ الظاهر منه يبقى خفيًّا، إذ ليس ثمّة عقل قادر على إدراكه... فالله الفائق كلّ جوهر... حين ارتضى أن يأتي إلى الـجـوهـر (الإنـسـانـيّ)، اتّخذ جوهراً، عـلـى نـحـو يـفـوق الـجـوهـر، صـائـراً إنساناً. أمّا كيفيّة صيرورته إنساناً فتظلّ محجوبةً إلى الأبد، لأنّه صار إنساناً، على نحو يفوق الإنسان».

هذا النصّ الجميل، الذي خطّه القديس المعترف، يُعبّر، على رغم كثافته وصعوبته، تعبيراً دقيقاً عن معنى السرّ، في المنظار اللاهوتيّ، وعن معنى أن يكون تجسّد ابن الله سرًّا. من اللافت أنّ المعترف، في هذا الـنـصّ، يـشـيـر إلـى الـعـنـصـريـن المذكورين أعلاه واللذين يجعلان من السرّ سرًّا، أي عدم قـابـلـيّـة إدراكـه وطابعه المحجوب. غير أنّه يوضح، انطلاقاً من التجسّد، أنّ ما يميّز السرّ، في الـمـرتـبـة الأولى، هـو أنّ إدراكه عصيّ على الخلائق. فسرّ التجسّد، حتى بعد ظهوره، أي بعد خروجه من إطاره المحجوب، في فكر الله، إلى حيّز تحقّقه عملانيًّا، عبر صيرورة الكلمة الإلهي إنسـانـاً، يبقى «سرًّا». وسبب ذلك لا يُعزى فقط إلى أنّ الله لا يكشف ذاته إلاّ على قدر مدارك البشر وقدرتـهم عـلـى الـتحمّل، فحسب، بل لأنّ التجسّد، في ذاته، وكما أظهره يسوع، إنّما يظل سرًّا، يظل خـافـيـاً عـلـى الـبـشـر ونـائـيـاً عـن مداركهم، لأنّهم، لئن يعرفون أنّ الله تجسّد، إلاّ أنّهم لا يدركون البتّة كيف تمّ هذا التجسّد. فابن الله صار إنساناً على نحو يفوق الإنسان. هذا ما يبرّر أنّنا، إلى اليوم، نطلق على التجسّد لفظة «سرّ»، فـنـتـحـدّث عـن «سـرّ الـتـجـسّـد الإلهيّ»، رغم أنّ أمر التجسّد ما عاد فـي طـيّ الـكـتـمـان، كـمـا فـي الـعـهـد القديم. لقد استعلن الله عبر يسوع الناصريّ، وأبرز، علناً، قدرته على أن يصير بشراً، ليخلّص البشر. مع ذلك، نحن لا نستنكف من أن نسمّي التجسّد سرًّا، بمعنى أنّنا أمام حقيقة إلهيّة ندرك حصولها، غير أنّنا لا نحيط بكيفيّة هذا الحصول.

انطلاقاً من هذا يمكن توسيع فهمنا للنصّ الليتورجيّ المقتبس أعلاه. فسرّ التجسّد «غير معلوم عند الملائكة»، ليس فقط بمعنى أنّه كان، حتى حصوله، في فكر الله فقط، بحيث أنّ الملائكة أنفسهم ما كان لديهم علم به، بل بمعنى أنّه حتى الملائكة، لا البشر فقط، غير قادرين عـلـى الإحـاطـة بـه، عـلـى فضّ مكنوناته، والوقوف على حقيقة أمره، من حيث كيفيّة تنازل ابن الله وصيروته إنساناً.

ما علاقة مفهوم هذا السرّ بما نـتـعـارف عـلـى تسـمـيّـتـه «أسرار» الكنيسة كالمعموديّة والإفخارستيا والتوبة؟ الحقّ أنّنا لا نعثر، في العهد الجديد، على أي نصّ يشير إلى هذه الأفـعـال الـلـيـتـورجـيّـة بـوصـفـهـا «أسراراً». فهذه التسميّة تعود إلى آباء الكنيسة في القرنين الثاني والثالث.

تصدرُ منه.

تأمل

الروح القدس الذي تكلّم عبر الأنبياء لم يتنبأ عن يسوع المسيح فقط، بل وأعلن مسبقاً نواميس الإنجيل الأخلاقيّة. من هنا الاتفاق التام بين تعاليم الأنبياء والرسل. الاتفاق هذا ظاهر بين المقطع المذكور أعلاه في رسالة أفسس وأقوال النبي داود التعليميّة. كان داود يرشد الناس وهو يسبّح ويرنّم لله، لذلك تكلّم باختصار كلّي عن القواعد الإنجيليّة الأخلاقيّة قال: «حدْ عن الشرْ واصنع الخير» (مز ١٤:٣٣).

إن الوصيّة الإنجيليّة وخلاص كل إنسان مؤمن ترتكز على هذه القاعدة أي على تجنّب كلّ رذيلة وعمل كلّ فضيلة. لا يكفي، من أجل الخلاص، أن نحيد عن كل رذيلة بل ينبغي أن نتمّم كلّ فضيلة: «حدْ عن الشر واصنع الخير» هذا ما قاله النبي داود. هذا ما قاله أيضاً الرسول بولس. كان الرسول يتكلّم، من خلال الأفسسيّين، إلى المسكونة بأسرها ناشراً تعاليمه الإنجيليّة. فقد أعلن أولاً الشرور بأسمائها وأوصى الابتعاد الكلّي عنها قال: «وأمّا الزنى وكلّ نجاسة أو طمع فلا يُذكر اسمها بينكم كما يليق بقدّيسين، لا بذاءة ولا سخافة ولا هزل فذلك مُنكر» (أف ٥: ٣). ثم اشار إلى الصالحات بأسمائها أي إلى الفضائل

غير أنّ العهد الجديد، ولا سيّما الرسائل البولسيّة، يتحدّث عن سرّ المسيح الذي يُستعلن بواسطة البشارة الرسوليّة، ويصبح حاضراً في الكنيسة: سرّ تجسّد ابن الله وموته وقيامته وحلوله على المؤمنين به (كو ١: ٢٦-٢٧؛ أف ٣: ٣-٤). الخِدَم الليتورجيّة التي اصطلحنا في الكنيسة، إذاً، على تسميّتها «أسراراً» إنّما تُدعى كذلك لكونها متأصّلة في سرٍّ واحد أوحد هو سرّ المسيح، سرّ حضوره بالجسد، وما أتاحه هذا الحضور من عمل خلاصيٍّ بلغ ذروته في الصلب والقيامة. أسرار الكنيسة، إذاً، تتحدّر من هذا السرّ الأوحد. وهي تشكّل طرق حضور هذا السرّ في حياة المؤمنين. ومن البديهيّ أن ينطبق عليها ما ينطبق عليه من حيث أنّنا نعرف مصدرها، ونلمّ بمفاعيلها فينا، لأنّها تحقّق فينا الخلاص، وتمدّنا بالقوى الإلهية التي يُنعم بها القائم من بين الأموات، بروحه، على كلّ من اعتمد على اسمه، وتناول جسده ودمه. إلاّ أنّنا لا ندرك كنهها، ولا نحيط بكيفيّة تحقيق ابن الله هذا الخلاص العجيب بواسطتها، بل نتأمّل كلّ هذا بالتسبيح، رافعين الشكر لمن منّ علينا بسرّ الأسرار، سرّ تجسّده، من عذراء ،ليلة ميلاده المجيد.

معنى الميلاد

كل عام، ومع اقتراب الإحتفال بعيد ميلاد الرب يسوع بالجسد، تنهال علينا الإعلانات الدعائية التي تدعونا لشراء حاجيات، وقد لا نكون بحاجة إليها، لكي يكون عيدنا جميلاً. هذا إضافة إلى الأفلام التي تدّعي أنها تتحدّث عن الميلاد ولكن هدفها الأساسي تجاري بحت. لذا لا بد من كلمة حول معنى الميلاد.

من العقائد الأساسية في الإيمان المسيحي ان الله في البدء خلق الإنسان، ذكراً وأنثى، على صورته ومثاله. وهذا يعني أننا، نحن البشر، لسنا مجرّد نتاج بيولوجي وراثي، ولسنا مجرّد هياكل جينيَّة. كما أنّنا لسنا مجرّد تجمّع لخلايا مادية أو أشياء تتحكّم بها النُظم الإقتصادية والاجتماعية والتطورات التاريخية. حياتنا لا تُقاس بممتلكاتنا أو بالقوة التي نملك أو بالمستوى الثقافي والعلمي. نعم، كل هذه الأمور مهمَّة في حياة البشر، إنما ليست هي التي تجعلنا بشراً. نحن بشرٌ لأن دعوتنا الأساسية والضرورية هي أن نكون أفضل انعكاس لحضور الله بين الناس. نحن جُعلنا لكي نكون «متمثّلين باللهِ كأولادٍ أحبّاءَ» (أف ١:٥) و«شركاء الطبيعةِ الإلهيَّةِ» (٢بط ١:٤).

أن نكون على صورة الله ومثاله يعني أن نملك الحرية وقدرة الإختيار والوعي لما نفعل. أن نكون قادرين على معرفة الخير وعمل الخير، وعلى التصرُّف والإهتمام بالآخرين. أن نكون قادرين على ممارسة السلطة والخلق والإبداع والإهتمام بشؤون الكون والناس وقيادتهم نحو المسيح قائدنا إلى الملكوت «الذي ننادي به مُنذرين كلَّ إنسانٍ ومُعلِّمينَ كُلَّ إنسانٍ، بكلِّ حكمةٍ لكي نُحضِرَ كُلَّ إنسانٍ كاملاً في المسيحِ يسوعَ» (كو ١:٢٨).

الله هو الإله الحي ونحن جُعلنا أيضاً أحياء. الله صالح ونحن جُعلنا صالحين. الله حكيم وجُعلنا حكماء. الله مسالم ومحب للفرح، محب ورؤوف، قوي ولطيف، وهذا ما يجب أن نكون عليه نحن أيضاً. الله يحيا إلى الأبد ولا يموت، وهكذا خُلقنا لنكون خالدين فيه. الله يدبِّر شؤون كل ما صنعته يداه، ونحن المخلوقين على صورته ومثاله خُلقنا لنهتم بخليقته. ويمكن للائحة هذه أن تطول، لكن الأهم هو أن «الله محبَّة»

العامة: الصلاح، البرّ والحق. أوصى إذاً (على مثال داود) بالابتعاد عن الرذيلة وعمل الفضيلة.

«يا أخوة، اسلكوا كأولاد النور، فإن ثمرَ الروح هو في كلّ صلاح وبرّ وحقّ» (أف ٥:٨–٩).

قال أولاً «اسلكوا كأولاد النور» ثم أشار إلى أعمال المستنيرين بالروح القدس داعياً إيّاها ثمرَ الروح، كون الإنسان يحصل عليها عن طريق نعمة الروح القدس. وقد سبق الرسول وعدّد لأهل غلاطية تسعة أثمار للروح القدس: «وأمّا ثمر الروح فهو محبّة، فرح، سلام، طول أناة، لطف، صلاح، إيمان، وداعة وتعفّف» (غلا ٥:٢٢). بينما اختصر هذه الأثمار في رسالته إلى أهل أفسس إلى ثلاثة فقط: «في كلّ صلاح وبرّ وحقّ». هذا لأن العدد ٩ يمكن أن يأتي من ٣. ومع الأثمار الثلاثة أضاف كلمة «في كلّ» لكي يظهر أنه، في كمال هذه الفضائل الكبيرة الثلاثة تكمن الفضائل الأخرى. لأنه عندما نسلك «بكل صلاح» محسنين للأصدقاء والأعداء، «بكلّ برّ»، غير ظالمين أنفسنا بعمل الخطيئة والقريب بالادعاء والتهجّم عليه ظلماً، «وبكل حق» قائلين حقيقة الإيمان وآخذين جانب الحق في كلّ كلام وعمل، عندئذ نحبّ، نفرح، نسالم، نتأنّى، نصبح صالحين، مؤمنين، ودعاء ومتعفّفين.

نيكيفوروس ثيوطوكس

(١ يو ٤: ٨، ١٦) ونحن خليقته خُلقنا لنكون محبَّةً، لنحب كما يحب هو، لنحب كل ما يُحب هو، وأن نحبه أولاً.

مأساة الجنس البشري ان البشر لم يكونوا على قدر دعوتهم الإلهية ولم يكونوا كما كان يجب أن يكونوا عندما خلقهم الله. بكلام بسيط وعميق: لم يستطيعوا أن يحبوا. هذه هي خطيئة آدم وحواء والبشريَّة من بعدهما، انهم استعملوا الصورة الإلهية والقوى الإلهية الموجودة فيهم لعمل الشر بدل الخير، للكذب بدل الصدق، للدمار بدل الخلق، للموت بدل الحياة. أفسدوا كيانهم وشوَّهوا الصورة الإلهية فيهم وفقدوا مثال الله فيهم، وبالتالي لم يصلوا إلى ما كان يقصد الله لأجلهم عندما خلقهم.

لقد أتى الرب يسوع بالجسد منذ أكثر من ألفي عام ليستعيد في البشر صورة الله ومثاله. أعطاهم القدرة من جديد لكي يكونوا ما كان يجب أن يكونوه عند الخلق في البدء. لا يقوم الرب يسوع بهذا لأنه ابن الله الوحيد وكلمته وحسب، بل لأنه «هو صورة الله غير المنظورة» (كو ١:١٥). مَنْ يرى يسوع، كما قال هو، يرى الآب (يو ١٤: ٨–٩). كونه صورة الله الأزلية غير المخلوقة، استعاد المسيح صورة الله في الجنس البشري بصيرورته إنساناً حقيقياً، آدم «الأخير»، الإنسان «الذي من السماء» (١كور ١٥: ٤٥–٤٩). الرب يسوع، بصفته آدم «الثاني» و«الأخير»، فعل كل ما كان آدم الأول مدعو أن يقوم به ولم يفعل. أطاع الله ومجَّد اسمه وفرح بحضوره ووقَّر ألوهته وشكره على كل عطاياه ونطق بكلامه وفعل أعماله وتمَّم إرادته. وهكذا تصرَّف بطبيعته البشريَّة حقيقة كما جُعلت على صورة الله ومثاله. لكن كونه ابن الله وصورة الله غير المخلوقة، فإن ما حققه يمتد إلى كل الجنس البشري وجعله متاحاً مجاناً لكل الناس: «لأنَّه كما في آدمَ يموتُ الجميعُ هكذا في المسيحِ سيحيا الجميعُ» (١كور ١٥: ٢٢). لأن آدم لم يكن سوى «مثال الآتي» (رو ٥: ١٤). هذا هو الرب يسوع. يقول الرسول بولس ان نعمة الله المعطاة لنا بالرب يسوع تفعل إيجابياً في كل الجنس البشري كما فعلت خطيئة آدم سلباً في الجنس البشري قديماً: «لأنَّهُ إن كانَ بخطيئةِ الواحدِ قد ملَكَ الموتُ بالواحدِ، فبالأولى كثيراً الذينَ ينالونَ فيضَ النِّعمةِ وعطيَّةَ البرِّ سيملِكونَ في الحياةِ بالواحدِ يسوعَ المسيحِ» (رو ٥:١٧).

هذه هي رسالة عيد الميلاد. آدم الجديد يتجسَّد ليستعيد صورة الله. يسوع المسيح هو صورة الله لأنه هو ابن الله الوحيد «هو بهاءُ مجدِهِ ورَسْمُ جوهرِهِ وحاملٌ كلَّ الأشياءِ بكلمةِ قُدرتهِ» (عب ١:٣)، «الذي إذ كانَ في صورةِ اللهِ لم يحسِبْ خُلسةً أن يكونَ مُعادلاً للهِ» (في ٢:٦). في المسيح وجدت الخليقة كمالها، وبه تحيا وتستمر. في المسيح تصل الخليقة إلى ما كان يقصد الله لأجلها منذ البدء، أي تحصل بالنعمة على ما يخص الله بالطبيعة. به يصير البشر بشراً. «المسيح أتى ليعيد الصورة التي سقطت منذ القديم» (من طروبارية تقدمة عيد الميلاد).

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb